فـإن قواها الكامنة تتجلى في مصادمة هـذه العقبات، و إذا قهرت الذات الإنسـانية العقبات الإنسـانية بلغت منزلة الاختيار وخلصت من قيود الجبر ونالت الحرية الكاملة[1].

ودائمًا يربـط إقبال بين وجود الذات وحريتها برباط وثيق، هذه الحرية التي هي ملاك الذاتية، والتي تتيح لنا القوة على الحياة والتسلط على الطبيعة وهي التي تجعل الفرد الموهوب لا يقف بجهاده في حدود شـخصيته، بل يبذر جهده للارتقاء بمجتمعه عن طريق الدعوة إلى الحق، دعوة يستهين في سبيلها بكل تضحية، لأن التضحية في سبيل الحق تزيده نصرًا وتعزيزًا.

الذات وعلاقتها بفلسفة الدين عند إقبال:

أشرنا في ثنايا بحثنا إلى أن إقبال قد وقف على الثقافتين الإسلامية والغربية وتأثـر بهما، و إن كان نفسـه يحاول أن يدرأ عن نفسـه تهمـة التأثر بالفكر الغـربي، إلا أن المتأمل يجد أن مفكرنا قد تأثر بطرف ما بهذا الفكر، صحيح أننا وجدنا أنه قدم لنا فلسـفة قرآنية مميزة، إلا أنه لم ينج من التأثر بالحضارة الغربيـة سـواء في النهج أو في بعـض الأفكار التي تخدم فكرته الإسـلامية، فكما استطاع أن يوظف مفهوم «خودي» الذات ويخرجه من مفهوم الأنانية (كما هو في الأصل) إلى الإيجابية (في فكره)، استطاع أيضًا أن يوظف مختلف الأفـكار والمفاهيم التي اسـتعارها من احتكاكه في الثقافـة الغربية توظيفًا جديدًا، ولعل هذا سمت التفرد والعبقرية.

فإقبال يبني فلسـفته الدينية على أساس أن الإنسان خليفة الله في الأرض،

(1) د. عبد الوهاب عزام: محمد إقبال ص16.

فعليه أن يتخلـق بأخلاق الله. وأنه على قدر ما يصيب من ذلك يكون قربه من الله.[1]

فهو يرى أن هدف الإنسان الديني والأخلاقي هو إثبات ذاته لا نفيها وعلى قدر تحقيق انفراده أو وحدته يقترب من هذا الهدف. وعلى قد بعده من الخالق تنقضي فرديته، والإنسان الكامل هو الأقرب إلى الله، فالإنسان إنمـا يقوم بذاتيته أي بما يبلغه من الكمال العقلي والخلقي وهو لا يسـتوفي حظه من هذا الكمال، إلا إذا عرف نفسـه حـق المعرفة وأخذها بالتنمية والتقوية ووثق بها وركن إليها واسـتغنى بها عن غيره وعمل وجد وسـعى وكد، وتعشق الشرف، وخلق لنفسه المثل الجميلة والمقاصد النبيلة: لا يبلغ مقصـدًا إلا ابتغى بعده مقصدًا أرقـى ولا يحقق مطلعًا إلا تطلع إلى مطلب غيره أسمى[2].

ويمكننـا القول بـأن فكر محمد إقبال يعد من نـوع الفكر المفتوح وليس من طراز الفكر المغلق الجامد. لقد وضع لنفسـه وللمسـلمين فلسفة أخذها مـن صميم عقيدتـه ولكن على أسـاس النظـر إلى العقيدة من خـلال العمل والسلوك.

وكأن فلسفته رد فعل على الأحوال التي لاحظها وأدركها في الأمم العربية والإسـلامية، لقـد أدرك محمد إقبال بثاقـب نظره بأن الإسـلام قد أصبح بين معتنقيه جسـدًا بلا روح. أصبح مجموعة من الرموز غير المفهومة.. ومن هنا

(1) نفس المرجع: نفس الصفحة.

(2) د. طه حسين: مقال «إقبال شاعر فرض نفسه على الدنيا وعلى الزمان» ضمن مقالات لكبار الكتاب، الناشر سفارة باكستان بالقاهرة 1952م، ص20.

فقد وجد لزامًا عليه أن ينبه المسلمين إلى الأخطاء التي تنتشر بينهم ثم يدعو بعد ذلك إلى التجديد محددًا مواضع الداء وطرق العلاج[1].

إنه يقول في إحدى قصائده:

أرى التفكير أدركه خمول ولم تبق العزائم في اشتعال
وأصبح وعظهم من غير سحر ولا نور يطل من المقال

و يعلق المرحوم عثمان أمين على فلسفة الدين عند إقبال، فيرى أنه نظر إلى الدين على أنه «دين مفتوح» بمعنى أن رسالته رسالة إنسانية ليس لها حدود زمنية أو مكانية وأن به قوة كامنة تستطيع أن تحرر نفوس البشرية من قيود الأجناس والألوان العصبيات. وبذلك أعاد إقبال إلى الأجيال الجديدة من المسلمين ما افتقدوه من الثقة بالثقافة الإسلامية، كما بعث في نفوسهم تصميمًا على أن يبعثوا أمام الأبصار الحضارة المجيدة التي كانت في وقت ما نعمة سابغة على الدنيا[2].

والحق إن فلسفة الدين عند مفكرنا إقبال ترتبط بالذات الكاشفة العارفة التي تربط بين علوم الدين والدنيا، فإقبال مفكر منفتح على منجزات الحضارة الغربية في مضمار العلم، كما أنه وقف على مختلف النظريات السيكلوجيه في علم النفس، هذا بجانب ثقافته الإسلامية التي وعاها جيدًا، نعم لقد هضم مختلف الأفكار والثقافات، واستطاع أن يفرز لنا فلسفة دينية أصيله ومعاصرة في آن واحد.

(1) د. عبد الوهاب عزام: مقال: فلسفة الذات فلسفة قرآنية، المرجع المذكور، ص50.
(2) د. محمد كامل مرسي: مقال: إقبال من أولئك الالحاد الذين وهبوا أنفسهم لنفع الإنسانية، المرجع السابق، ص59.

ولعل خير من يعبر عن هذه الحقيقة الدكتور عثمان أمين عندما يقول: إذا كان محمد إقبال قد اغترف من مناهل الفكر الأوروبي على العموم و إذا كانت فلسفته زاخرة بخواطر «فشتة»، «وبرجسون» على الخصوص فالذي لا يشك فيه أن فيلسوف باكستان وشاعره كان يحس إحساس المسلم و يفكر بعقليته[1].

لقد كانت الخلفية الإسلامية في فهم التراث عند إقبال أحد الدوافع الرئيسية في الرد على أقوال «برادلي» وغيره من أتباع الفيلسوف «هيجل» أولئك الذين ينكرون الفرد ولا يسلمون إلا بالمطلق كما عارض شطحات الشعراء من الصوفية أمثال الشيرازي، لأنه كان يرى انتشار آرائهم من أسباب الانحطاط المتفشي في بلاد الإسلام[2].

والجدير بالذكر أن نحلل مفهوم «العشق» عند مفكرنا إقبال، هذا المفهوم الذي غالبًا ما يلجأ إليه في أشعاره وكتاباته، خصوصًا ونحن بصدد تأسيس فلسفة الدين عند مفكرنا..

يربط مفكرنا إقبال بين القوة للذات وفكرة العشق، وتعني عنده الحماسة والرغبة في العمل الخلاق، وأعلى صور العشق عنده هو خلق القيم و إنشاء المثل العليا، والسعي الدائب إلى تحقيقها.

وكما أن العشق يقوي الذات، فالسؤال يضعفها و يهينها والسؤال ها هنا ينتج الخمود وقصور الهمة والقعود عن العمل[3].

(1) نفس المرجع نفس الصفحة.
(2) د. العراقي: المرجع السابق، ص 188.
(3) د. عثمان أمين: محمد إقبال، ص19.

والملف للنظر حقًا في شخصية مفكرنا إقبال، إنه يؤكد على النظر والعمل وأن أعلى مراتب الذات هي المرتبة التي تصل فيها الشخصية إلى الانسجام بين العقل والقلب، بين العلم والدين، بين الذهن والبصيرة، بين الفكر والعمل، هذه مرتبة الإنسان الكامل الذي تنتظره الإنسانية.[1] ويحدد الفيلسوف إقبال الغاية من الذات في الحياة، بأنها تحقيق رسالتها، ودورها الخلاق الحقيق بها: فمنتهى غاية الذات ليس أن ترى شيئًا بل أن تصير شيئًا، والجهد الذي تبذل لكي تكون شيئًا هو الذي يكشف لها فرصتها الأخيرة لشحذ موضوعيتها، وتحصيل ذاتية أكثر عمقًا ترى الدليل على حقيقتها في قول «كانط».. «أنا أقدر»، لا في قول «ديكارت».. «أنا أفكر».[2]

والذات الإنسانية كما أن لها الدور الكبير في تحقيق سعادتها ورسالتها فإن مفكرنا أيضًا يؤكد أن الفردية أساس العلم وأن الخير في تقوية ذات الإنسان، واستخراج ما في فطرنا من قدرة، وكذلك يرى إقبال أن هذه الذات لا تربى وتكمل إلا في الجماعة، وأن عمل الجماعة هو أن تمكن الفرد من بلوغ كماله بإظهار كوامن فطرته ومنتهى قدرته.[3]

وهكذا يشيد مفكرنا إقبال بهذه الفلسفة الدينية التي كان يأمل فيها ومحورها الذات الفعالة الإيجابية التي تتفاعل مع الوجود ولكن هذه الذات لا بد لها من مراحل عدة تربوية لكي تكون خليقة بهذا الدور ويذهب مفكرنا إلى تقسيم هذه المراحل إلى ثلاث: الطاعة وضبط النفس، والنيابة الإلهية، فالطاعة أن

(1) د. عثمان أمين: المرجع نفسه، ص21.
(2) نفس المرجع، نفس الصفحة.
(3) د. عثمان أمين، المرجع السابق، ص26.

يكون الإنسان حرًا في تسخير هذا العالم، ولكن يقيد نفسه بالشريعة. وضبط النفس لا يكون إلا بنفي الخوف والشهوات، وأن التوحيد المطلق ينفي عن النفس والاستكانة والمطامع، وأما المرحلة الثالثة من مراحل تربية الذات وهي النيابة الإلهية، فهي مرحلة يكون الإنسان فيها مسيطرًا على العالم، مسخرًا قوى الكون نافخًا الحياة في كل شيء، مجددًا شباب كل هرم، يهب الحياة بإنجاز العمل ويجدد مقاييس الأعمال، ويرد العالم إلى الإخاء والسلام[1].

إن فلسفة إقبال ذات طابع ديني عميق وهي في جوهرها تمجيد للإسلام وبعث للحياة والقوة في المسلمين، وتبشير لهم بمستقبل مجد وفخار إذا ساروا في حياتهم على هدي دينهم.[2]

موقف إقبال من التصوف:

الجانب الصوفي عند إقبال أحد الجوانب الواضحة في فكره، لا سيما من خلال أشعاره وكتاباته، فذاتية الشاعر والفيلسوف ذاتية الحس والمشاعر، ومن هنا كانت عبقرية المفكر في عرض الحقائق في قالب شعري.

لقد وقف إقبال على التصوف الإسلامي وتأثر بالعديد من أعلامه كجلال الدين الرومي وغيره من الصوفية الخلص.

ولعل العديد من التساؤلات التي تطل برأسها علينا، هل كان إقبال من القائلين بالفناء أو الاتحاد أو الحلول؟ أم أن فيلسوف الذاتية والتفرد والشخصية سيظل على عهده بنا؟؟

(1) نفس المرجع: نفس الصفحة.
(2) محمد إقبال: تجديد الفكر الديني، ص226.